

خليل مطران

شغل هذا الشاعر الناس أكثر من نصف قرن بشعره الطريف ، وقد كان يعد في شبابه ثائرًا على اللغة والأدب العربي ، بيد أنه اليوم يتمتع بمكانة محسودة بين شعراء هذه اللغة . هاجم هذا الرجل جمود اللغة العربية بشعره الرائع المعاني ، الدقيق اللفظ ، الباهر الصور ، الطريف الموضوعات ، وجذب حوله أنصارًا وشيعة قوية ، وانتهى الأمر به إلى أن صار زعيم المدرسة الحديثة في الشعر العربي لا يتنازع فيها منازع .

أثر شعر مطران في نفوس شعراء هذا الجيل عظيم لا يستطيع أن يمحده جاحد ، فهو أول من طرق موضوعات الوجدان والعاطفة الخالصة في شعر هذه اللغة ، فقد كان يكتب خواطره إلى البحر في قصيدته «المساء» حينما كان سواه من شاعري الشعراء غارقين إلى الأذقان في نظم المديح المصطنع المقيت !

والمطلعون على الشعر الأوربي يرون أن مطران واقف على أحدث

تيارات الشعر العصري . فهو لا ينظر إلى جمال البيت المفرد وإنما ينظر إلى جملة القصيدة ، ويعنى بها كوحدة قائمة بذاتها لها كيائها ولها تركيبها وترتيبها وتناسق معانيها . فأنت حينما تقرأ قصيدة لهذا الشاعر تحس بانسجام الفكر ، وتسلسل الخواطر ، تسلسلاً أكاد أقول منطقياً ، بحيث لا تتردد لحظة في تصديق هذا الشعر تصديقاً تاماً ، ولا تتوانى في التسليم بما يقول الشاعر . فليس شعر مطران وهماً من أوهام المتقدمين والباكين على الأطلال وإنما هو شعر الحياة الصادق ، الذى يعالج العيوب والنقائص البشرية في سهولة ووضوح .

وقضل مطران على الشعر العربى العصرى عظيم ، فهو الذى مهد لمدرسة الجديد ، وبنى لها الأساس المتين .

ولقد كان يعتقد اعتماداً راسخاً حينما أخرج الجزء الأول من (ديوان الخليل) أن شعره الجديد على اللغة آنئذٍ سيصبح شعر المستقبل ، ولقد قال فى ذلك المعنى «على أننى أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة هو شعر المستقبل ، لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً» ولقد صدق مطران فيما قال ، فلقد شاعت هذه الطريقة وراجت منظوماتها ، وقام رهط كبير من الشعراء بتأثره ويحتذون نهجه ، حتى أصبح القوم اليوم لا يطربون لغير شعر هذه

الطريقة التي تحدث عنها مطران في بيانه الموجز الذي صدر به ديوانه الأول في فاتحة هذا القرن الميلادي .

كان للقصة في الشعر العربي القديم مكانة لا بأس بها ، وكان الشعراء يدونون في قصائدهم مفاخرهم ويسجلون انتصاراتهم ، ويلاءهم في الغزوات ، بيد أن قصصهم لم يكن قصصاً منتظماً متسلسل الرواية ، مطرد الحكاية ، وإنما كانت ترين عليه آثار البداوة ، وتغلب على نسجه سداجة الفطرة الأولى ، واضطراب الطفولة الإنسانية ، فلم تكن هنالك قواعد مرعية ولا نظم مضبوطة ، وإنما هناك عواطف مرسلّة على سجيئها إرسالاً حرّاً .

خمل شأن القصة في الشعر العربي بعد ذلك طويلاً ، ولم ينشط الشعراء نشاطاً محمود الأثر في سبيل النهوض بها حتى جاءت النهضة الحديثة . ولعله من الخير والإنصاف للحقيقة التاريخية أن نقول في هذا الصدد إن أول مَنْ مهد للقصة الشعرية الحديثة في هذه اللغة إنما هو الشاعر خليل مطران . فلقد كتب كثيراً من روائعه القصصية الشعرية قبل هذا القرن الميلادي العشرين ، وكان مبدعاً غاية الإبداع في أداء تلك القصص أداءً صادقاً قوياً سيترك صدها للأجيال القادمة من قراء العربية . وأذكر وأنا أكتب هذه الكلمة قصصه «العصفور» و«فنان قهوة» و«إن من البيان لسحراً»

وهـ الجنين الشهيد » وهـ فتاة الجبل الأسود » وهـ نبيرون » من (ديوان الخليل) الجزء الأول ولا أحب أن أقتبس منها شيئاً خوفاً من إفساد جمالها ، فما أحسب أن المرء يفهم جزءاً يتترع من جسم قصة حية ، ولذلك أنصح لكل من يحب الوقوف على أسرار الجمال القصصى في شعر مطران أن يرجع إلى ديوانه « الخليل » حيث يصيب متعة روحية وذهنية عظيمة بتشرب معاني وصور مطران القصصية كاملة غير منتزعة من أصلها .

فإذا انتوينا أن نؤرخ النهضة القصصية في الشعر العربي الحديث وجب علينا أن نضع مطران في طليعة الذين خدموا هذه النهضة ، وأن نقول في غير لبس أو مواربة إنه الرائد الأول في هذا المضمار . ومطران في تناوله القصة الشعرية لا يقصد أن يعرض علينا حكاية مجردة ، ولكنه يريد أن يستخلص لقومه وجوه العبرة من القصة التي هو بسبيل عرضها ، وهو دائماً يمزج الخيال بالحقيقة الواقعية في قصصه ، فلا تجئ قصصه مستحيلة الوقوع كتلك القصص الوهمية التي عرفت عن الأقدمين ، والتي كان أبطالها من صنع الوهم . ولكنه يخلق لك من الحوادث والمشاهد المألوفة قصصاً تسو فيها أرواح أبطالها سموً لا يكاد يتحقق في هذه الدنيا الواقعة إلا في النادر البعيد الوقوع . يريد بذلك أن ينهض بالنفوس الغريقة

في أوهام الحياة الشرقية المريضة ، ويأخذ بيدها إلى سبيل النور
والسمو والعزة القومية .

وقصصه تستأهل دراسة مستفيضة منفصلة عن شعره الباقي ،
ذلك أن القصص هو العنصر الفذ الذي قامت عليه شاعرية مطران ،
شأنه في ذلك شأن كل نوابغ شعراء أوروبا ، وأحسب أن القصة عند
الإفرنج نشأت مع الشعر ونمت تحت أنغامه وحببت بين أوزانه ثم
ترعرعت واشتد عودها ، حتى لتفتش عن الشعر الأوربي الذي خلا
من القصة فلا تكاد تعثر عليه ، والحق الذي لا مسيل إلى إنكاره أن
القصصى فنان واسع الخيال ، بعيد مدى التصور ، فكل شاعر
قصّاص واسع الخيال بعيد مدى التصور ما في ذلك شك ، والشعر
القصصى عظيمة فوائده ، فهو إلى جانب أنه قصة تشرح بعض
العواطف والمعاملات وتقف المرء على شىء من أزمات القلب
والعقل ، قريب إلى عقول الجماهير ، حبيب إلى قلوبهم . ولا يستطيع
المرء أن يغفل مزايا القصة المثورة وفضلها على الروح الإنسانية . فإذا
سكنت هذه القصة في أوزان موسيقية وخیالات شعرية ، فهي حرة
بأن تنساب إلى القلوب دون وعى أو شعور .

ولقد توافر مطران على هذا الباب السحرى ، وأكثر من نظم
القصة الشعرية السامية المقصد ، سواء في ذلك الرمزية المثالية

والعاطفية الواقعية ، وقصة « فتاة الجبل الأسود » قصة ابتدع الشاعر موضوعها ، وخلقها خلقاً بخياله المتوفر المتحضر واختار لها مناسبة حسنة ، مناسبة نهضة شعب جريح العزة يريد الثأر لكرامته المهينة وعزته الجريحة .

ويلعب الخيال المتوثب دوره الكبير في جعل فتاة من فتيات هذا الجبل تستهدف لشعوب بين أسياف الترك وسهامهم التي لا تخطئ الهدف . ولا يزال بك حتى يهرك بقوة خياله العبقري ، ويسحرك ببراعة تصويره . وهو كذلك في قصته « إن من البيان لسحراً » ، يدع ابداعاً عظيماً في التصوير المثالي المتخيل ، الجامع بين الخيال السامي والحقيقة الشريفة الرفيعة . وكذلك شأنه في قصة « نيرون » التي تعد من عيون الشعر القصصى .

وأحسب أن منبع القصة عند مطران هو الحب ، والحب الشريف العذرى الذى عرفه في مطلع الشباب ، وهل الحب إلا قصة كبيرة ، فيها كل ما فى الحياة من عواطف وأفكار وآمال ؟ وأنت ترى الشاعر فى « حكاية عاشقين » التي نظمها من سنة ١٨٩٧ إلى غاية سنة ١٩٠٣ ميلادية يمرّد على الناس ذكريات غرامه فى مقطوعات متتابعة ، تأخذ النهج القصصى ، وإنى أؤمن أن هذه القصة التي يقول الشاعر « إنه تبع وقائعها ، وكان فيها ترجمان ضمير

العاشق ولسان فؤاده» هي قصة الشاعر نفسه ، ما في ذلك ريب ،
ولست أدري لماذا حاول التخلص منها ، وهي الوحي الصادق الذي
ألهب شاعريته إلهاباً عظيماً ، وأحسب أن مطران الشاعر مدين لذلك
الوحي ، وسيقى مديناً له ما عاش .

ومطران يتعب في شعره برغم ما يلاحظه القارئ من إنتاجه
الخصب . يتعب لأنه يعتقد أن القصيدة ليست من العبث الذي يلهو
به المرء ، ولا يعتقد كذلك أن الشعر من أمور التسلية التي يحتشد لها
المرء في وقت الفراغ ، وإنما هو يرى أن الشعر حقيقة سامية ، يجب
أن يكد الذهن في سبيل إبرازها على أتم ما تكون إشراقاً وثراءً وجالاً ،
والجمال الشعري عند مطران لا يعنى جمال الثوب اللفظي فحسب ،
وإنما هو جمال المعنى الذي ينطوى عليه هذا الثوب ولقد يحسب
الأغوار ممن يجندعهم لمعان الملابس الزاهية أن الجمال كل الجمال في
هذه الثياب الظاهرة وحدها ، ولكن الحقيقة المرة تنكشف لهم عن
تورطهم الشنيع في الخطأ عندما تتمزق هذه الثياب الظاهرة عن جسد
قذر هزيل معروق ! فطران يجعل همه إظهار المعنى على أتم ما تسع
القافية العربية ، ولا يهمه بعد ذلك أجاء اللفظ بحيث يسمو إلى براعة
المعنى أم قصر عن الارتفاع إليه .

ولقد خرج شعر مطران على الناس في آخريات القرن المنصرم

حينما كان غيره من الشعراء المعروفين ينحون النحو القديم من حيث الاحتشاد للفظ والاهتمام بالثوب اللفظي مهما كلفهم ذلك من إفساد المعنى . وأحدث مطران في العربية شعراً عربياً عذباً لا يخرج على قواعد اللغة ولا على النظم العربى المألوف إلا بمقدار ما أثرت فيه مطالعته فى الشعر الإفرنجى . ولقد تحققت نبوءة مطران بعد مدة قليلة : فرأى يعنى رأسه ثمر جده وتعبه ناضجاً جنياً : فهذه مدرسة الشعر الحديث التى أسسها هذا الرجل قد أنجبت بعد قليل من ظهور الجزء الأول من (ديوانه الخليل) أحمد زكى أباشادى . وعبد الرحمن شكرى ، وخليل شيبوب . وسواهم ممن بقودون الحركة الشعرية فى هذه الأيام .^(١) ويكنى مطران فخراً أنه قد أنجب هؤلاء التلاميذ التوايع . فكل واحد منهم يعد محوراً لحركة أدبية تجديدية أخرى . وما أظن مطران إلا فخوراً هؤلاء الرسل الأبرار الذين يقومون بالدعوة إلى الشعر الحى الجديد فى صدق واستبسال . ويعجب المرء حين يرى اهتمام مطران بالنظم فى الأمور العادية ، ولكن هذا العجب لا يعم حتى يزول ويتلاشى سريعاً حينما يعلم أن النفس الكبيرة واسعة النظرة ، شاملة العطف على المظاهر الكونية ، وهو فى قصيدة « حلوى العيد » يصور صورة باسمته من صور الحياة

(١) يلاحظ أن الطبعة الأولى ظهرت عام ١٩٣٤ .

المألوفة ويرينا كيف تصنع الحسان حلوى العيد .

ويُجدنها فلو السفاه تعففت عن أكلها لضمنها لخلود

فهذه الصورة الساذجة نرينا كيف يهتم الشاعر بالنظم في الموضوعات العادية ، وأظنه ما كان ليهم بالكتابة في مثل هذا الموضوع لو لم يكن عنصر المرأة مجسمًا ظاهرًا فيه ، فهنا الغيد تصنع الحلوى وكفى أن يكنّ الصانعات لما حتى ينشط الخيال الشعري المتوثب لتخليد ما صنعن .

والمرأة هي التي تحرك مطران وتحفزه إلى نظم الشعر ، فهي التي جعلته يبكي ويثن في شعره الأول «حكاية عاشقين» أنين محب صادق الإحساس ، يرى القلب من الأدران ، وهي التي جعلته يبكي عليها بعد ذلك في قصته الرائعة حقًا «الجنين الشهيد» حيث يحركه الإشفاق عليها إلى قوله :

وكم ضائع الجوع الأثيم بهاءها وقبلها حتى أجف دماءها
وكم ساعف الحرّ المذيب شقاءها وكم نازع البرد الشديد ثناءها
نوائب تأتي كالأليالي وتستعلی

وقوله :

على أنه ملهى رجال أسافل ومبغى نساء فاجرات عواطل
جديب خصب بالبطون الحوامل وما تقذف الأمواج من كل ساحل
من الرمل ما يقذفن فيه من النسل !

يُعدُّ بنيه للمهانة والخنأ ويلق بهم في البحر تحت يد الفنا
فيتخذون التيه في الأرض موطناً عراة حفاة خائرين من العنا
إذا نزلوا خصباً فبشره بالمحل
فتحترف الأزواج بغى نساها وتحترف الزوجات خلع حياها
وولّد خلّت آباؤها عن إباها يتاجر في أعراضها وبهاها
وتتمو على خلق المفاسد والختل

وهكذا يضرب الشاعر الاجتماعي على هذا الوتر الحساس القريب
من القلوب الإنسانية ، ويظهر للملأ أن الحضارة الراهنة إن هي
إلا همجية مستترة ، وخان للخنأ مبرقع ، ولعلك لاحظت كيف أن
المرأة كانت وحيه في هذه القصيدة القصصية ، فجعلت منه المصلح
الاجتماعي الذي يجار بشكواه في ثورة عادلة حكيمة .

ويدهشك ، بل يحيرك أن ترى روح الفكاهة غالبة على مطران
وهو العاطفي المزاج ، المرهف الحساسة ، الذي يعالج أموراً اجتماعية

جمّة . ولكن يبدو لى أن روح التبرم والسخط هى التى جعلت منه الشاعر الفكّه فى بعض المواقف ، وكثيراً ما يضحك المرء فى أشدّ الحالات عبوساً وألماً ، ويحى ضحكه سليماً بريئاً من كل آثار الحزن والألم . وهكذا تراه فى قصيدته « يوسف أفندى » و « قضية بين القلب والعين » وسواهما مرحاً فكها .

• • •

وللناحية الوجدانية أثر كبير فى شعر مطران ، ومنشأ هذه العاطفة فيما أرى حنينه الكبير إلى وطنه ومسقط رأسه ، وهو فى « قلعة بعلبك » يسمو سموّاً عظيماً فى التعبير عن حبه العظيم لهذه الديار ولأهلها الأعزاء ، ويشعر بك بدموعه ويسمعك أنينه فى كل لفظة من ألفاظه الصادقة القوية ، وإنه ليذكرها ويذكر معها طفولته البريئة بين عرصاتها فيقول :

يه آثار بعلبك سلام	بعد طول النوى وبعد المزار
ووقيت العفاء من عرصات	مقويات أوائل بالفخار
ذكرينى طفولتى وأعبدى	رسم عهد عن أعينى متوارى
مستطاب الحالين صفواً وشجواً	مستحب فى النفع والإضرار
يوم أمشى على الطلول السواجى	لا افتزار فىن إلاً افتزارى

نرقا بينهن غراً لعبوا لاهياً عن تبصر واعتبار
مستقلاً عظيمهما ، مستخفاً ما بها من مهابة ووقار
يوم أنخلو بهند نلهو وترهو والهوى بيننا أليف مجارى
نتبارى عدواً كأننا فراشا روضة ما لنا من استقرار

كنت أحب أن أنقل إليك كل هذه الصورة الوصفية البارعة
ولكنى اقتصرت على هذه الأبيات ، وهى تصور لك شخصية الشاعر
المحب لوطنه ولذكريات صباه ، وهو ينطلق فى التحدث عن الهوى
البريء العفيف الجهول الذى قام بينه وبين « هند » حيث كانا
يتباريان عدواً كأنهما فراشا روضة لا يستقران على حال ! والقصيدة
كلها من الشعر الوجدانى السامى .

وكذلك يجب أن نقف وقفة أخرى عند قصيدته « المساء » التى
نوهنا بها فى صدر هذا الكلام ، وهى من عيون الشعر الوجدانى
الحديث ، ولقد أثرت هذه القصيدة فى كثيرين من الشعراء المعروفين
فنظموا على غرارها قصائد كثيرة ، ولقد قال الشاعر هذه القصيدة :
وهو مريض فى مكس الإسكندرية فجاءت تحفة خالدة ، ومنها
يقول :

قلب أذا بته الصبابة والجوى وغلالة رثت من الأدواء

والروح بينهما نسيم تهد في حالي التصويب والصعداء
والعقل كالمصباح يفتى نوره كدري ويضعفه نضوب دماي

• • •

هذا الذي أبقيته ياميتي من أضلعي وحشاشتي وذكالي
عمرين فيك أضعت لو أنصفتني لم يجدرا بتأسني وبكالي
عمر الفتى الفاني ، وعمر محلد ببيانه لولاك في الأحياء

وهكذا يمضي في حديثه عن نفسه ، وعن غرامه وعن حياته في
الغربة بين المرض والألم والذكرى الممضة .

متفرد بصبايتي ، متفرد بكآبتي ، متفرد بعنالي
شاك إلى البحر اضطراب خواطري فيجيني برياحه الهوجاء
ثاوي على صخر أصم وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء

ويخلص من حديثه عن نفسه إلى حديثه عن الغروب فيدع حيث
يقول :

يا للغروب وما به من عبرة للمستهام وعبرة للراي
أوليس ترعاً للنهار وصرعة للشمس بين جنازة الأضواء
أوليس طمأً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء

أوليس محمًا للوجود إلى مدى وإبادة لمعالم الأشياء
حتى يكون النور تجديدًا لما ويكون شبه البعث عود ذكاء
وهكذا يفتن الشاعر العبقري في وصف الغروب افتنانًا رائعًا حقًا
يسلب القلب والمشاعر جميعًا .

وهكذا مطران في قصائده الوجدانية الأخرى شاعر كبير يبلغ
القمة السامية ، ويشرف على الكون جميعه ، ويحرك العواطف
كلها ، ويخاطب القلوب على اختلاف أمياله وأحلامها ، ولا يؤخذ
عليه في هذا الضرب من الشعر غير العناية الكبيرة بالمعاني الرصينة
القوية والاهتمام التام بمحشد الصور الكثيرة المزدحمة ولكن وحدة
القصيدة عند مطران من أسباب مجده الشعرى ، ولعله الشاعر الأول
الذى عنى بها بين شعرائنا المحدثين .

ومطران يحب حبًا شاملاً لا يحد ولا يحصر ، يحب الناس جميعاً
ومن هنا كان له أصدقاء كثيرون أخلص لهم الود وأزله من نفوسهم
مترلة كريمة . ويظهر لك هذا الحب الشامل المتين في فرحه وابتهاجه
بفرح هؤلاء الأصدقاء وابتهاجهم ، وفي حزنه ويكائه لدى مصائبهم
وآلامهم .

ولعل أحسن قصائد الرثاء في شعر مطران قصيدته في صلوة

الزعيم «مصطفى كامل» التي أنشدتها على ضريحه في حفلة الأربعين .
وهي قصيدة سامية الخيال . قد ظهرت فيها العاطفة الصادقة ظهوراً
بيناً . ولا بدع . فقد كان خليل مطران أحد المجاهدين الذين انضموا
تحت لواء الزعيم مصطفى . وناصرود في دعوته . وأيدوه في فكرته .
وتأثروا بآرائه . حتى ليرى القارئ هذا التأثير واضحاً تمام الوضوح في
(ديوان الخليل) نفسه وفي هذه القصيدة يقول :

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
وأرى ترابك من حين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبراً
وكأننى بك موشك أن تهتفا
* * *

وبعد ، فهذا مطران الشاعر كما يبدو في ديوانه الأول (الخليل)
الذى طبعه في أوائل هذا القرن الميلادى ، ولا يزال في طليعة مفاخر
الشعر الحديث ، ولقد اقتصرنا عليه ونحن نعلم أن الشاعر قد نفع قراء
الأدب ولا يزال يفتحهم بشعره الرائع الخصب .
والرأى في مطران أنه الشاعر الذى مهد لهذه النهضة الشعرية
الحديثة في العالم العربى التى أثمرت الآن وآتت أكلها ، وهو شاعر

دقيق المعنى في أغلب نظممه ، حديث الموضوعات ، لطيف المدخل
سهل التعبير سهولة ربما أنقصت الجمال الشعرى في بعض المواقف ،
وهو إلى ذلك أول من اعتنى بالقصة في شعره عناية فائقة وأتى بها في
ثوب من الفن قشيب .